المقتطف

هل الانسان حرّ الارادة

وهي محاورة بين الاضطرار والاختيار

تابع ما قبله

ولمّا جال الاضطرار في مضمار الحديث وصال . وختم مجثه بدقيق المعنى وطيب المقال . صمد اليه الاختيار فقال : اذا قلّ علم الفتى كثرت معاثرهُ وضلّ مُعاشرهُ فكم من فتة هنا يصيبها كلامك ويغويها الى الضلالة اقدامك يحسبونك في سداد الرأي طودًا راسخًا وفي سعة المعارف بحرًا زاخرًا فيلقون اليك مقاليد التعليم ويجعلون معك كفتا تميم . فاذا ملت ذات اليمين مالوا معك واذا تجاوزت الى اليسار قالوا دأبنا ان نتبعك فهم يتقلقلون في اعصار تعاليمك

كريشةٍ يهبّ الريح طائرةٍ لا تستقرّ على حالٍ من القلق

على انهم لو القوا وقر التقليد عن عاتقهم وامتحنوا الآراء بانفسهم وصرفوا الى البحث والعلم ساعي همهم لكشفوا المخبوات واستجلوا السهوات وعرفوا غث القول من سمينهِ ولم يتباهوا باسم هذا الفيلسوف الكبير ولا ذاك المنطقيّ الشهير . وانا اراك هداك الله قد مزجت الاصابة بالغلط في ادلّتك وتعجّلت في استخراج نتيجتك قبل ان تستوفي مقدمتك . فقد انكرت حرّية الارادة بل انكرت وجودها بشواهد منكورة وبراهين مشطورة كما سأبيّنهُ لك في ما يلي :

اولاً . ادّعيت ان كل افعالنا اضطرارية وليس فيها فعلٌ ارادي خلافًا لما هو شائع وما يجده كل انسانٍ من نفسهِ فلم تجعل فرقًا بين تحريك الطفل لشفتيهِ في الرضاع وتحريك الرجل لشفتيهِ في الإلماع بل قلت ان شفتي الطفل اذا سكتا شيئًا مهما كان تحركان من تاثير ذلك الشيء فيهما لا من ارادة الطفل وكذلك الرجل اذا الماع بشفتيهِ فعل ذلك من تاثير داعٍ فيهِ دعاهُ اليهِ لا من ارادتهِ . فعلى ما قلتَ لم يبقَ للارادة وجود وان تخيّلت لها الوجود لم يكن لها في النفس مقام يُذكَر . ولمّا كانت دعواك هذه نقوّض اوطد اركان الفلسفة الحاضرة لو صحّت كان الواجب عليّ في السجال معك ان ادقق اولاً النظر فيها واحقق قيمة ادلتك عليها

قلت وصدقت ان الضفدع اذا نُزع مخها من دماغها لم تزل تفعل افعالاً كالافعال التي نحسبها ارادية فاذا وُخزت قفزت واذا حُكّ ظهرها انفعلت. ونقّت واذا نُبذت في الماء سبحت حتى تصيب رجلاها الارض فتقف واذا وُضعت على الكف وأُميلت الكف بها مالت الى الجهة الثانية حتى لا تقع واذا أُدخل الطعام في فمها ابتلعته الى غير ذلك من الافعال التي تفعلها وهي صحيحة الدماغ ونحسبها ارادية. ولكنك لم تقف على هذا الحد الحق ولا جزته الى ما هو حقٌّ مقرَّرٌ بالتجربة والمشاهدة ايضاً. بل فعلتَ كما فعل اقطاب مذهبك من قبلك فحكمت ان الضفدع عطلٌ من الارادة وانها تفعل افعالها بتاثير المؤثرات الخارجية فيها كما يدور الدولاب بقوّة مَنْ يديرهُ لانها فعلت تلك الافعال والارادة معدومة منها. ولو انك استشرت غير اهل مذهبك من ارباب العلم لتجلّى لك الحق ساطعاً قاطعاً. فانك اذا نزعت مخ الضفدع من دماغها وحككتَ بقعةً من ظهرها نقّت مرتاحةً الى ذلك وما دمتَ تحكّ ظهرها دام نقيقها اي انها ما دام المؤثر يؤثر فيها دام الفعل الصادر من ذلك التاثير ولم تقدر الضفدع على ابطاله لعدم وجود الارادة فيها. واما اذا بقي دماغها صحيحاً ونقّت في بركةٍ من الماء حكمنا كما حكم العلاّمة كُلتر الجرماني ان نقيقها من حك الخلب والاعشاب التي في الماء لظهرها. فلو كانت عطلاً من الارادة كما تدّعي لاقتضى ان تنقّ ما دام الخلب يحكّ ظهرها ولكنك تعلم كما يعلم كل احدٍ انها اذا أُلقي حجرٌ في الماء صمتت الضفدع ولو ملأ نقيقها الجوّ قبلُ خلافاً لما تفعل ومخها منزوع منها. فالفرق بين فعل الضفدع في الحالين واضحٌ كالصبح لذي عينين. وما سبب هذا الفرق الاّ الارادة لانه لما نُزعت آلة الارادة (اي المخ) من دماغ الضفدع لم تعد تستطيع الحكم على افعالها فصارت طوع المؤثرات فيها. ولكن لما بقيت ارادتها فيها جعلت تنقّ عند ما تشاء. وكذلك يقال في قفزها فانها اذا بقي دماغها صحيحاً وارادتها عاملة فيها قفزت بدون وخزٍ وسعت في طلب رزقها والانضمام الى الفها من تلقاء نفسها. واما اذا نُزع مخها فارتفع سلطان ارادتها عن افعالها لم تعد تقفز ما لم توخز او يؤثر فيها مؤثرٌ آخر. ولم تعد تسعى لطعامها ولو افضى الجوع الى موتها ما لم يوضع الطعام في فمها. فشتّان ما بين افعالها الارادية وافعالها الاضطرارية الآلية

ثانياً. وكذلك الامر في السمكة وغيرها من الحيوانات التي ذكرتَ في مثالك. فانك اذا نزعت مخ السمكة فعطّلت ارادتها واطلقتها في الماء سبحت على وجهها ولم تحد عن طريقها الاّ اذا عارضها معارض. ولم تقف الاّ اذا فرغت قوّتها العصبية وكلّ عضلها بخلاف ما لو اطلقتها في الماء ودماغها سالمٌ وارادتها عاملةٌ فانها تسبح تارةً وتقف في ظل الصخر اخرى وتنطلق على وجهها تارةً وتاخذ يمنةً او يسرةً اخرى حسبما يطيب لها. فارادتها تفتح لها باب الحركة وتغلقهُ عنها وتقودها وترشدها في سيرها وتسوقها الى جهاتٍ مقصودة لغاياتٍ مقصودة. وقس على ما ذكرت ما لم اذكر في هذا الشان فالمجيب

طويل والمقام ضيق والوقت عزيز. والخلاصة التي قرّرها العلماء الاعلام[1] انه اذا نُزع المخ من الدماغ لم يعد الحيوان قادرًا على اصدار الحركات ولا احداث الافعال الّا طوعًا للعوامل الخارجية بلا واسطة. واما اذا بقي الدماغ صحيحًا وثبت الارادة عامة فيصدر الحيوان الحركات ويحدث الافعال بواسطة قوة مقرّها المخ من الدماغ

ثالثًا. على انه لو فُرض صدق دعواك ولم يثبت غير ما ادّعيت لم يكن ذلك دليلاً قطعيًا على ان الانسان عبد للضرورة وآلة تديرها الدواعي والمؤثرات لا حرٌّ مختار. فان الانسان في اعتقادي يباين الحيوان الاعجم في نوعه[2] فلا يصدق عليه بالضرورة ما يصدق على غيره من الحيوانات: ألا ترى ان كثيرين من انصار مذهبي[3] يقولون ان الحيوان الاعجم آلة لا حرّية له ولا اختيار ولا يقدح ذلك في صحة مذهبهم ولا سيما لان في ارادة الانسان ما ليس في ارادة الحيوان كما سيأتيك مفصّلاً. والحق يقال ان ادلتك على كون الانسان آلة بيد الفواعل الخارجية لم تجد عندي قبولاً ولم تشفِ من غيري غليلاً. لان ما ذكرته عن الرجل الذي شُدِخ رأسه فكان آلة بيد غيره وعن الرجل الذي يصلّي ويتمّ فروضه وهو لاهٍ عنها كلها يدل على ان بعض الافعال التي نحسبها ارادية تكون ايضًا آلية. ولا يستدلّ منه ان كل انسان يفعل افعاله بلا ارادة ولا اختيار كما ذكرت او انها لا تتمّ بالارادة على الاطلاق

على اني اخشى ان تحسبني ممّن يقول بلا سند فسابسط لك الكلام على ذلك لتعلم ان عمدي الحقائق وسندي التجربة والمشاهدة: لا ريب اني أُولد منطورًا على فعل بعض الافعال بلا قصد ولا ارادة ولا علم كالسعال (اذا كان في الحنجرة جسم غريب يهيجها) والعطاس ونبضان القلب والشرايين وحركة المعدة والامعاء في هضم الطعام وغير ذلك من الحركات. فهذه لا يُنكر انها تتمّ بفعل عصبيّ يصدر من المراكز العصبية المتصلة بالاعضاء التي تحدثها. فهي آلية ولا سلطان للارادة البتة على بعضها ولها بعض السلطان على البعض الآخر كالسعال. ولو كان الانسان مقتصرًا عليها فقط لكان آلة محضة تدور من نفسها. ولكنه يفعل ايضًا افعالاً غيرها لا ريب في كونها ارادية ولعلّ الذي يجعلها عندك اضطرارية آلية هو كون الكثير منها يصير آليًا بعد ان يمرن الانسان عليه كالمشي مثلاً. فان الطفل لا يقدر عليه الّا بعد ان يجهد ارادته ويبذل قوته على توفيق اعضائه وتوازنها من خطوة الى خطوة حتى لقد اجاد العلّامة يالي بقوله "ان الطفل في اوّل مشيه اعظم المعلمين في احكام الوقفة وتعديلها" اه. واما

---

(١) قرّره الشهير بجاريه في الدماغ وكربنتر ودلتن

(٢) من اعظم مسائل هذا العصر ما اذا كان الانسان يفرق عن سائر الحيوان بالرتبة فقط او بالنوع ايضًا.

(٣) ان اختلاف الفلاسفة في مذاهبهم لا نظير له في سائر العلوم الّا نادرًا. ولذلك يتعذّر حصر مذاهبهم ولا سيما في مبحث الارادة هذا. ولا يبالغ من يقول انه لا يمتنى اثنان منهم في كل تفاصيلهم واتفقوا على القضايا الكلية فيه

متى امتلكت ارادتهُ قيد اعضائهِ وكبحت بقوتها جماح عصبهِ وعضلهِ فتذلُّ لها اعضاؤهُ وتذعن فيمشي حالما يريد وينتقل كيفما شاء. وعلى طول المزاولة تسهل مطاوعة الجسد للارادة فتتنازل عن تذليلها وسوقها وتسلّم قيادها لمراكز عصبية في الدماغ ادنى من مركزها. فتستولي هذه المراكز على الاعصاب والعضلات وترشد حركاتها والارادة معتمدة عليها لاهيةً عنها بغيرها. وما دامت الارادة لاهية والاعضاء عاملة كان عملها آليًّا يجري بفعل وانفعال بين الاعصاب ولم يفرق صاحبها من هذا القبيل عن "عجلةٍ تدور او ريحٍ تثور". ولكنهُ حالما ينتبه الى حركاتها فيوقفها او يزيدها او ينقصها ينتقل من حيّز الآلية والاضطرار الى حيّز الارادة ويثبت بذلك حرّيتهُ في تحريك اعضائهِ (ستأتي البقية)

سرُّ النباتات المعترشة

النباتات المعترشة انواع كثيرة من اجناس شتى كاللوبياء والبقطين والورد والعلّيق ومجد الصبح والملّي والكرم والعشق غير انها كلها ذات سوق ضعيفة ولا تسعى على الارض ككثير من النباتات الضعيفة البنية بل تستطيع ان تعلو على ما ينصب لها من العريش كما يشاهد في الكرم او تعرّش بغيرها من الاشجار او تسلّق الحيطان ونحوها. ولذلك سمّيناها المعترشة من باب تسمية الكل باسم البعض

فاذا امعن اللبيب نظرهُ في امر هذه النباتات لم يتمالك نفسهُ عن ان يسأل ما القصد يا ترى من اعتراش هذه النباتات وكيف يتهيأ لها مع خلوّها من الادراك ان تجد لنفسها عريشًا تعلق بهِ وتستند اليهِ وتعلو عليهِ ولو كان منبتها بعيدًا عنهُ. وما هي الوسائط التي تمكّنها من الاعتراش عليهِ والتشبث بهِ حتى انها مع دقتها وضعف بنيتها تقابل الانواء ولا تهاب وتلقى العواصف ولا تقع. فعلى هذه المسائل الثلث يدور الكلام في هذه المقالة

اما القصد من اعتراش هذه النباتات فيتضح لمن يُنعم نظرهُ في افتقار النبات الى النور. فانهُ لمّا كانت حياة كل نبت اخضر متوقفة على النور وكان اكثر هذه النباتات المعترشة ابن سنةٍ او اقل لم يمكنها ان تخلّص من ظلول الاشجار الكبيرة المعمّرة ولا ان تمرّ من خلال اغصانها وتتمتع بالنور هنيًا مريًا الاّ بطريقةٍ تسهّل لها الارتفاع في زمانٍ قصير ومادّةٍ قليلة ونموّ عظيم. وهذه الشروط يستوفيها الاعتراش ولذلك يكون القصد من اعتراش النباتات البلوغ الى حيث يتيسّر لها النور لقيام حياتها مع ضعف بنيتها وقصر عمرها بالنسبة الى الاشجار الكبيرة المعمّرة

واما معرفة هذه النباتات للاماكن التي يوجد فيها العريش او نحوهُ من الاشجار والحيطان التي تتعرّش بها وتتسلّق عليها فظاهرها عجيب جدًّا حتى زعم كثيرون ان في هذه النباتات قوّةً خفيةً تدرك